فوائد متنوعة

آداب خدمة الملوك:

يحكى من الآداب في خدمة الملوك ومصاحبتهم: إذا أراد الملك إكراماً فزده إعظاماً، وإذا جعلك عبداً فاجعله سيّداً، ولا تديمن النظر إليه ،ولا تكثر من الدعاء له في كل كلمة، ولا تتغير له إذا سخط، ولا تغترَّ به إذا رضي، ولا تلحّ في مسألته.

وقال الشاعر:

إن الملوك لا يخاطبونا ولا إذا ملوا يعاتبونا
وفي المقال لا ينازعونا وفي العطاس لا يشمتونا
وفي الخطاب لا يكيفونا يثنى عليهم ويبجلونا
فافهم و صاة لا تكن مجنونا

وقالوا: من تمام خدمة الملوك أن يقرب الخادم إليه نعليه، ولا يدعه يمشي إليهما، ويجعل النعل اليمنى قبالة الرجل اليمنى، والنعل اليسرى قبالة الرجل اليسرى، وإذا رأى متكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه، ولا ينتظر أن يؤمر بإصلاحه. ودخل شبيب بن شيبة على أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين، فأراد أن يسأل أمير المؤمنين عن اسمه، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين إني أحب المعرفة وأجلُّ الأمير عن السؤال؟ فقال له: فلان بن فلان، فانظر إلى التلطف في السؤال، لأن الملوك لا تسأل عن أسمائها.

التسليم على العلماء:

ويروى أن الإمام مالك بن أنس، وعلي بن يونس المديني كانا جالسين فإذا سفيان ابن عيينة يستأذن بالباب، فقال الإمام مالك: إن سفيان بن عيينة رجل صالح صاحب سنّة، أدخلوه.

فدخل سفيان بن عيينة، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردوا السلام، فقال سفيان: سلام خاص وعام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله، فقال مالك: وعليك السلام يا أبا محمد ورحمة الله.

فصافحه مالك، وقال : يا أبا محمد لولا أنها بدعة لعانقناك، فقال سفيان: قد عانق من هو خير منا رسول الله ﷺ، فقال مالك: جعفراً عندما قدم من الحبشة؟ قال سفيان :نعم، فقال مالك: ذاك حديث خاص يا أبا محمد ليس بعام، فقال سفيان: ما عمّ جعفر بن أبي طالب يعمنا، وما خصّه يخصّنا إذا كنا صالحين أفتأذن لي أن أحدث في مجلسك؟.

قال الإمام مالك : نعم يا أبا محمد، فقال سفيان بن عيينة: حدّثني عبد الله بن طاووس عن أبيه عن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، أنه لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة اعتنقه النبي ﷺ وقبَّله بين عينيه، وقال : جعفر أشبه الناس بي خَلقاً وخُلقاً.

هذه بتلك:

بين معاوية بن أبي سفيان والأحنف بن قيس التميمي في التعريض، فقال معاوية للأحنف: أخبرني عن قول الشاعر:

إذا مات ميت من تميم وسرك أن يعيش فجي بزاد
بخبز أو بتمر أو بسمن أو الشيء الملفف في البجاد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

ما هذا الشيء الملفف في البجاد؟ قال الأحنف: السخينة يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: واحدة بواحدة والبادي أظلم.

والسخينة طعام كانت تعمله قريش من الدقيق، وهو يسمى الخزيرة، فكانت قريش تُسبّ به وفيه يقول حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

ومما جاء في التعريض عن الأشياء: يقال دخل رجل على زياد بن أبيه، والرجل يُعدّ من أشراف البصرة، فسأله زياد عن مسكنه فقال له : أين مسكنك من البصرة؟. قال الرجل: في وسطها، قال له زياد : كم لك من الولد؟. قال الرجل: تسعة.

فلما خرج الرجل من عند زياد قيل له : أيها الأمير إنه ليس كذلك في كل ما سألته ، وليس له من الولد إلا واحد ، وهو يسكن في طرف البصرة.

فلما عاد الرجل إلى زياد، سأله عن ذلك، فقال الرجل:ما كذبتك أيها الأمير لي تسعة من الولد، قدمت منهم ثمانية فيهم لي وبقي معي واحد،فلا أدري أيكون لي أم علي، ومنزلي بين المدينة والمقبرة، فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة. فقال زياد صدقت.

ودخل رجل على عيسى بن موسى، وعنده ابن شبرمة القاضي، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟، (وكان قد رمي عنده بريبة) فقال القاضي: نعم، إن له بيتاً وقدماً وشرفاً، فخلّى سبيله، فلما انصرف الرجل قالوا للقاضي: أكنت تعرف ذلك الرجل؟ قال: لا ولكني عرفت أن له بيتاً يأوي إليه، وقدماً يمشي بها، وشرفه أذناه ومنكباه.

العجب يقتل صاحبه:

يحكى أن سليمان بن عبد الملك بن مروان الأموي، أمير المؤمنين، خرج يوم الجمعة ولبس لباساً شهر به وتعطر، ودعا بوعاء فيه عمائم مختلفة الأنواع، وبيده مرآة ، فأخذ يلبس عمامة بعد أخرى يختار منها حتى إذا رضي بواحدة منها، لبسها وأرخى من سدولها، وأخذ عصا وصعد المنبر ناظراً في عطفيه، وجمع جمعه،وخطب خطبته التي أرادها، فأعجبته نفسه فقال:

أنا الملك الشاب، والسيد المهاب،الكريم الوهاب، فتمثلت له جارية من بعض جواريه ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين؟ قالت: أراه منى النفس ، وقرة العين لولا ما قال الشاعر، قال : وما قال الشاعر؟ قالت: قال:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسانِ
أنت من لا يريبنا منك شيء علم الله غير أنك فانِ

فدمعت عيناه ، وخرج على الناس باكياً، فلما فرغ من خطبته دعا بالجارية، فقال لها: ما دعاك إلى ما قلت لأمير المؤمنين؟

قالت: والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم، ولا دخلت عليه؟ فأكبر ذلك ودعا بقية جواريه، فصدقتها في قولها، فارتاع لذلك سليمان بن عبد الملك، ولم ينتفع بنفسه ، ولم تطل حياته حتى توفي، نعوذ بالله من العجب بالنفس.

من وصايا الآباء للأبناء:

فمن عادات العرب وأخلاقهم، التي جبلوا عليها ، تقديم النصيحة لأبنائهم، لاسيما إذا أحسّ أحدهم بدنو أجله، فيمحصه النصح رغبة في السير على النهج القويم، من التخلق بالأخلاق الفاضلة، من الشجاعة والكرم والسخاء، والابتعاد عن سفاسف الأمور، ومن تلك الوصايا، وصية عبد الله بن شداد بن الهاد لابنه محمد.

روى ابن الكلبي عن أبيه قال: لما حضرت الوفاة عبد الله بن شداد دعا ابناً له يقال له محمد، فقال: يا بني إني أرى داعي الموت لا يقلع ،وأرى من مضى لا يرجع ، ومن بقي فإليه ينزع ، وإني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم،وليكن أولى الأمور بك، شكر الله وحسن النية في السرّ والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد،وكن كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكنَّ التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب ولكنَّ الذي يمضي بعيد

ثم قال: يا بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر وصروف الأيام ذات نوائب،على الشاهد والغائب، فكم راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه، وأعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن أي بني كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للعرف طالب
وإن امرأ لا يرتجى الخير عنده يكن هيناً ثقلاً على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالباً فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التوى هذا الزمان بأهله وبينهم فيه تكون النوائب

ثم قال: أي بني، كن جواداً بالمال،في موضع الحق،بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر،وإن أحمد البخل للحرّ الظن بمكتوم السرّ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجود بمكنون التلاد وإنني بسرِّك عمن سالني لضنين

إذا جـــاوز الاثـــنـين ســـر فإنـه بنكث وتكـثـيـر الحديث ضنين
وعـنـدي لـه يوماً إذا ما ائتمنتني مكـــان بســوداء الفـــؤاد مكـين

ثـم التفت إلى ابنه قـائلا: أي بني، وإن غلبت يوماً على المال فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال، والدوني عيال، وكن أحسن ما تكون في الطاهر حالاً، أقلّ ما تكون في الباطن مالاً، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنفاذ نعمته، وكن كما قال ابن خذاق العبدي:

وجـــدت أبي قـــد أورثـه أبـــوه خلالاً قـــد تـعـــد من المعالي
فأكرم مـــا تكون عليّ نفسي إذا مـــا قـــلّ في الأزمـات مـالـي
فتحسن سيرتي وأصـون عرضي وتجمل عـنـد أهـل الرأي حالي
وإن نلت الغنى لم أغـل فيـــه ولم أخصـص بجفـوتيَ الموالـي
ولـم أقـطـع أخـاً لأخ طـريف ولم يـــذمـم لطـرفـته وصـالي
فإنـي لا أضن على ابـن عـمـي بنصر في الخطـوب ولا نـوالي
ولست بقائل قـــولاً لأحـظـى بقـــول لا يصـدقـــه فـعـالي
ومـا التقصير قـد علمت معدّ وأخـلاق الـدنيـة من خـــلالي
وقد أصبحت لا أحـتـاج فيـمـا بلو ت من الأمـــور إلى سـؤالي
وذلـك أننـي أدبـت نفـــسـي وما حلـت الرجال ذوي المحال
إذا مـا المرء قصـر ثـم مـرت عـلـيـه الأربعـون من الرجـال
فلم يلحـق بصالحهم فـدعـه فليس بـلاحـق أخرى الليالـي
وليس بـزائـل ما عـاش يومـاً من الدنـيا يحـول على سفا ل

ثـم قـال: أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد فإنك إن أمضيتها حيالها رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل، هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائي:

وما من شيمتي شتم ابـن عـمي ومـا أنـا مخلف من يرتـجيني
وكلمة حاسد في غـيـر جـــرم سمعت فقلت مـري فـأنفـذيني

فعابوها علي ولم تسئني ولم يعرق لها يوماً جبيني
وذو اللّونين يلقاني طليقاً وليس إذا تغيب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحت عنه علي مخافة حسبي وديني

ثم قال: أي بني، لا توخ امرأ حتى تعاشره، وتتفقد موارده ومصادره فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة فَوَاخِهِ على إقالة العثرة والمواساة في العشرة، وكن كما قال المقنع الكندي:

إبْلِ الرجال إذا أردت إخاءهم وتوسمنّ فعالهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي اللبانة والتقى فبه اليدين قرير عين فاشدد
وإذا رأيت ولا محالة زلة فعلى أخيك بفضل حلمك فارْدد

العدل بين الأولاد :

وإن مما أرشد إليه الإسلام ورسول الإسلام العدل بين الأولاد، فقد أخرج الطبراني عن النعمان بن بشير ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، كما تحبون أن يبروكم**».

وقد حمّل الإسلام الآباء والأمهات، مسؤولية التربية في أوسع حدودها وفي أوسع مراميها، وحذرهم وأنذرهم الله سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦].

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «**الرجل راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية ومسؤولة عن رعيتها**»، وجاء : «**علموا أولادكم وأهليكم الخير وأدبوهم**» وروي: «**ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن**».

«**إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**».